

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد
وعلى آله وأصحابه . وبعد :

كان يخيل الى مصطفى صادق الرافعي دائما أنه رسول لغوى
بعث للدفاع عن القرآن ، ولغته ، وبيانه . وكان يؤمن أشد الايمان
بتمدن العرب اللغوى ، ويزهو بمستواه فى ثقة واعتزاز . وقد وجدت
أن ماكتبه فى تاريخ آداب العرب تحت عنوان « أسرار النظام اللغوى »
لم يكن الا معبرا عن جهد كبير فى سبيل اثبات وتأكيد ما يؤمن به ،
وابراز نسقه بنهج يسيطر على وجوهه . ويكشف ما يرمى اليه من سمو
وجلال . واكن هذا الجهد لم ينل من الباحثين ما يستحقه من البحث
الجاد ، والدارسة الشاملة ، ولم يتعرض الذين كتبوا عن حياة الرافعي
وتفكيره لبحثه فى أسرار النظام اللغوى على الرغم من تميزه وأهميته ،
ولم يكشف أحد النظرية التى تمكنت من الهيمنة على تلك الاسرار ،
ووجهتها الوجهة التى تريدها ، أو يتناول ما بذله الرافعي فى تجلية
ضروب نظامه ، وسيادة نظريته بالدراسة التى كنا نرجوها .

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الرافعي كان عالما فى العربية ،
أمكنته اللغة من قيادها . وألقت اليه بأسرارها . وأن كتابه تاريخ
آداب العرب من الكتب التى يعتمد عليها الدارسون . وأنه من الواجب
أن تعطى أسرار النظام اللغوى كل ما يستطاع حتى نعرف قدر الرجل ،
وندرك أثره ، ونتصل بالحقائق اللغوية على هدى ورشاد . وحين
قمت بدراسة أسرار النظام اللغوى عند الرافعي استخلصت الكثير
مما ينبغى أن يعرفه الناس . وتبين لى ارتباط الاسرار بنظرية المناسبة،
وقيام ضروب النظام اللغوى عليها بطريقة جعلت درسه مترابطا
متميزا .

وأدركت أنه يجب أن يحيط الطلاب بهذه النظرية ، ويدرسوا آراء
البحث اللغوى فيما ذكره الرافعى ، فذلك يتيح لهم أن يعلموا ما قدم
من جهود فى مشكلة المعنى ، وأن يخرجوا بحصيلة مثمرة من ثمار
الدرس اللغوى •

« وماتوفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب » •

د : حامد محمد أمين شعبان
كلية التربية — جامعة القاهرة
فى ٢٨ ابريل سنة ١٩٧٩ م

مصطفى صادق الرافعي

ولد مصطفى صادق الرافعي بن الشيخ عبد الرازق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي في يناير عام ١٨٨٠ م في بهتيم من قرى محافظة القليوبية في منزل جده الشيخ الطوخي الذي كان يتاجر بين مصر والشام ، اذ آثرت أمه أن تكون ولادتها في دار أبيها (١) ، وهذه الام سورية الاصل كأبيه الشيخ عبد الرازق الرافعي الذي عمل بالقضاء الشرعي ، وأخذ ينتقل من بلد الى بلد رئيسا للمحاكم الشرعية ، حتى انتهى به المقام في مدينة طنطا ، وفيها قضى بقية عمره ، وفيها أيضا عاش مصطفى صادق الرافعي كل حياته الفكرية والادبية ، متخذًا طنطا وطنا ومقاما لايعرف له وطنا غيرها (٢) .

وقد تلقى دروسه أول ما تلقى على يد والده ، وكانت حافلة بتعاليم الدين ، وحفظ شيء من القرآن الكريم ، ودراسة بعض أخبار السلف ، كما كانت مليئة بحصيلة وفيرة من الثقافة الخارجية ، وثمار العمل في مجال القضاء الشرعي .

وتأثر مصطفى صادق الرافعي بما تجلى في والده من الورع والصلابة في الدين ، والشدة في الحق ، وأعجب بعزة نفسه ، وابعاء روحه ، وعظمة طموحه (٣) ، وقوة جهاده . وأدرك أن الاسرة الرافعية التي ينتمي اليها نالت حظا عظيما من الشهرة بفضل أبنائها من الاعلام المشهورين في شتى مجالات الادب ، وعلوم الدين ، والقضاء والسياسة ، وعرف أن ذلك يرجع الى حب العلم والتنشئة عليه ، وتعشق الثقافة والتعويد على التعلق بها حتى سيطرت على كثير من أمور القضاء الشرعي الامر الذي لفت نظر عميد الاستعمار البريطاني في مصر اللورد كرومر وربما أدخل الفزع في قلبه (٤) .

(١) محمد سعيد العريان : حياة الرافعي الطبعة الثانية ١٩٤٧
مطبعة الاستقامة بالقاهرة ص ٢٧

(٢) نفسه ص ٢٥

(٣) نفسه ص ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٠

(٤) د : مصطفى الشكعة : مصطفى صادق الرافعي كاتباً عربياً
ومفكراً اسلامياً جامعة بيروت العربية ١٩٧٠ م ص ١٧ ومحمد سعيد
العريان حياة الرافعي ص ٢٤

أما المدرسة فقد دخلها بعدما جاوز العاشرة بسنة أو اثنتين وهو
يُتسبب بالطاعة ، واحترام الكبير ، وتقديس الدين ، والاعتداء
بالسلف (١) . ولكنه لم ينل من الشهادات الا الشهادة الابتدائية (٢) .

وكان مكتبة أبيه أثر كبير فيما حصله ، فقد أقبل على ما فيها من
تراث انساني يجد فيه كل انسان مشغلا يضيء له سبيل البحث
والكشف والتجرد والابداع ، واستطاع أن يستوعب نواذر كتب
الفقه والدين والعربية ، ويحيط بكل ما فيها ، ويؤثرها على
ماسواها (٣) .

وعندما عين كاتباً بمحكمة طلخا الشرعية في ابريل سنة ١٨٩٩ م
لم ينقطع عن المطالعة والدرس يوما واحدا . ولكن الفترة الخصبة
المنتجة من حياته كانت في مدينة طنطا ، وفها انتقل من المحكمة الشرعية
الى المحكمة الاهلية بعد سنين ، وظل في محكمة طنطا الاهلية الى يومه
الاخير (٤) .

ونستبين، من حياته أن أسعد أوقاته هي الاوقات التي يثرى فيها
معلوماته اللغوية « بحفظ القرآن الكريم ، والاحاديث النبوية ،
ومواقف الاعلام في التاريخ الاسلامي ، وحفظ أكبر قدر من شعر
القديم والمحدثين ، وخطب العرب ومحاوراتهم ، ومنافراتهم في
الجاهلية ، ودررهم الخطابية في الاسلام .

لقد كانت هذه الثقافة .. هي التي خلقت عند الرافعي نظرية
المزج بين اللغة والدين ، فكل من يحاول الاعتداء على اللغة أو الغض
من شأنها أو النيل من قدرها ، فانما هو يحارب الاسلام علنا أو
استتارا ، وهي نظرية أثبتت الايام صحتها (٥) .

(١) محمد سعيد العريان : حياة الرافعي ص ٢٨

(٢) نفسه ص ٢٨ ، ٢٩

(٣) نفسه ص ٣٠ ، ٣١

(٤) نفسه ص ٣٤ ، ٣٥

(٥) د : مصطفى الشكعة : مصطفى صادق الرافعي كاتباً عربياً

ومفكراً اسلامياً ص ٢٠

وكثير من مواقف الرافعى تدل على أنه كان خير حارس للغة ، وأقوى مدافع عن لسانها . فقد واجه الذين يناصرون العربية العداء بكل ما استطاع بعد أن تبين له أن هناك مؤامرة متعددة الاطراف متباينة الاساليب تنتهى الى هدف واحد هو اعلان الحرب على اللغة العربية ، والنيل من العقيدة ، والدعوة الى تحقير كل ما هو شرقى . وبدأ التآمر على اللغة فى شكل دعوة الى العامية أو تشويه اللغة العربية السليمة بالتخلص من الاعراب ، وبدأ أن الاستعمار يؤازر ذلك ، ويود عزل سلطان القرآن الكريم عن قلوب الناس (١) .

وظهر بعض الكتاب يقول فى الحملة على اللغة العربية « لنا من العرب ألفاظهم ماننا ورثنا عنهم هذه اللغة العربية ، وهى لغة بدوية لا تكاد تكفل الاداء اذا تعرضت لحالة مدنية راقية كذلك التى نعيش بين ظهرانيها الآن (٢) » .

وكان الرافعى يرد على صور التحامل بقوة ، ويواجه التآمر بحجج ساطعة ، ودفاع متين ، ويخوض المعارك القلمية الفكرية الضارية من أجل لغة القرآن والحضارة معلنا أن اللغة انما هى « مظهر من مظاهر التاريخ والتاريخ صفة الامة ، والامة تكاد تكون صفة لغتها لانها حاجتها الطبيعية التى لا تنفك عنها ، ولا قوام لها غيرها ، فكيفما قلبت أمر اللغة من حيث اتصالها بتاريخ الامة واتصال الامة بها وجدتها الصفة الثابتة التى لا تتروى الا بزوال الجنسية ، وانسلاخ الامة من تاريخها واشتمالها على جلدة أمة أخرى (٣) ولا يتخلى الاديب عن ابراز اعتراضه وفخره بالقبلة التى يتجه اليها ، ولا ينسى الرسالة التى يؤمن بها ، والغرض الذى يجاهد من أجله . يقول فى وحى القلم (٤)

(١) نفسه ص ٣٢ ، ٤١

(٢) نفسه ص ٣٦ . والكتاب المذكور هو الكتاب سلامة موسى انظر رد الدكتور مصطفى الشكعة عليه فى نفس المرجع .

(٣) مصطفى صادق الرافعى تحت راية القرآن الطبعة الاولى سنة ١٩٢٦ المطبعة الرحمانية ص ٤٨

(٤) مصطفى صادق الرافعى : وحى القلم تحقيق محمد سعيد العريان الطبعة الثالثة ١٩٥١ مطبعة الاستقامة ج ٣ ص ٣٠٠ وحياة الرافعى ص ٢٢٩

« والقبلة التي أتجه إليها في الادب • انما هي النفس الشرقية في دينها وفضائلها ، فلا أكتب الا ما يقيها حياة ، ويزيد في حياتها ، وسمو غايتها ، ويمكن لفضائلها وخصائصها في الحياة ، ولذا لا أمس من الآداب كلها الا نواحيها العليا • ثم يخيل الى دائما أنني رسول لغوى بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه فأنا دائما في موقف الجيش (تحت السلاح) له ما يعانیه وما يحاوله ويفى به وما يتحفظ فيه ، وتاريخ نصره وهزيمته في أعماله دون سواها » •

« والعقيدة واللغة عند الرافعي توأمان لا يفترقان ، وهو يرى أن الاعتداء على واحدة منهما اعتداء على الاخرى • وهو في ربطه بينهما حتى في مجال السياسة يقول (١) : « والذي أراه أن نهضة الشرق العربي لا تعتبر قائمة على أساس وطييد الا اذا نهض بها الركنان الخالدان الدين الاسلامي واللغة العربية • وما عداها فمعى ألا تكون له قيمة في حكم الزمن الذي لا يقطع بحكمه على شيء الا بشاهدين من المبدأ والنهاية » • (٢)

والحق أن ما قاله الرافعي كان دفقة من دفقات الروح المتوهجة، وتوقدا من توقدات الذهن المبدع ، واشراقة من اشراقات النفس الصافية التواقفة الى الكمال الاسمي والخير المطلق •

وكتابه تاريخ آداب العرب قدم الكثير لخدمة اللغة العربية ، ويذكر من تحدثوا عن حياته واستقصوا من أخباره الكثير أنه في عام ١٩٠٩ م كتب الرافعي مقالا في الجريدة ينعى فيه على الجامعة المصرية التي أنشئت عام ١٩٠٧ بعض مناهجها في تدريس الآداب وتاريخه ، فكان أن أعلنت الجامعة عن تأليف كتاب في تاريخ الآداب ، وحددت مدة سبعة أشهر كما جعلت جائزة الكتاب الفائز مائة جنيه ، ثم قامت بمد الاجل الى سنتين ورفع الجائزة الى مائتي جنيه • وكتب الرافعي يسخر من

(١) مصطفى صادق الرافعي : وحى القلم الطبعة الثالثة ج ٣

ص ٢٠٠

(٢) د : مصطفى الشكعة : مصطفى صادق الرافعي ص ١٤٤

وانظر محمد سعيد العريان حياة الرافعي ص ١٤٨

الجامعة ، ومن المدة المحددة ، والجائزة المتواضعة ، وكان يطمح في أن يؤلف الكتاب ، ويعهد اليه بتدريسه (١) ٠٠ وقد انقطع الرافعي لتأليف كتابه من منتصف سنة ١٩٠٩ ، الى آخر سنة ١٩١٠ ، وفي سنة ١٩١١ طبع الكتاب على نفقته قبل الاجل الذي حددته الجامعة ، ولذلك لم يتقدم اليها به قبل طبعه ترفعا عن قبول الحكم فيه لجماعة ليس منهم من هو أبصر منه بالمحكوم فيه (٢) ٠

والظروف التي أحاطت بهذا الكتاب تدل على أهميته ، ويذكر محمد سعيد العريان أن « مقالات الرافعي في « الجريدة » ، وكتابه « تاريخ آداب العرب » من بعد ، هما السبب في تدريس الآداب العربية وتاريخها في الجامعة المصرية وهما السبب كذلك في وضع ما وضع من الكتب في هذا العلم » (٣) ٠

ويبدو أن ما في الكتاب من صفاء وبهاء واحاطة حسنة بكثير من أمور اللغة وغيرها قد جلب الرأي المحمود والثناء المستطاب ، ورفع صاحبه مكانا عليا ودفعت كثيرا من الباحثين والادباء الى الاثادة به وتقدير منزلته (٤) ٠

« وفي السنة التالية أصدر الرافعي الجزء الثاني من تاريخ آداب العرب وموضوعه اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، وهو الذي أصدره من بعد في طبعته الثانية باسم اعجاز القرآن ، وباسمه الثاني يعرفه قراء العربية » (٥) ٠

أما الجزء الثالث فقد مات الرافعي وفي مكتبته أصوله ، وتم طبعه سنة ١٩٤٠ ومما يجدر ذكره أن الجزء الاول يحتوى على بابين أولهما

(١) محمد سعيد العريان : حياة الرافعي ص ٦٥ — ٦٦ و د : كمال نشأت مصطفى صادق الرافعي : دار الكاتب العربي للطباعة والنشر مصر ١٩٦٨ ص ٦٧ و د : مصطفى الشكعة مصطفى صادق الرافعي ص ١٩ — ٢٠

(٢) محمد سعيد العريان حياة الرافعي ص ٦٧

(٣) نفسه ص ٦٧

(٤) نفسه ص ٦٨ — ٦٩ و د : مصطفى الشكعة : مصطفى صادق

الرافعي ص ٥٤

(٥) محمد سعيد العريان : حياة الرافعي ص ٦٩ — ٧٠

كما ذكر الرافعى فى تاريخ اللغة ونشأتها وتفرعها وما يتصل بذلك •
وثانيهما فى تاريخ الرواية ومشاهير الرواة وما تقلب من ذلك على
الشعر واللغة •

وبحثنا يتناول ماكتبه الرافعى فى الجزء الاول من تاريخ آداب
العرب تحت عنوان أسرار النظام اللغوى ، وهو فى رأينا دراسة هامة
تعد خير الدراسات التى كتبها الأديب الكبير فى تاريخ آداب العرب ان
لم تكن أفضلها على الاطلاق • وسنجلى أسباب ذلك فى دراستنا
للاسرار ، وما تحمله من نظرية فرضت سيطرتها بصورة تعبر عن الترابط
والشمول ، وتدل على نهج قوى فى الدرس اللغوى يشير الى السمو ،
والحضارة ، والتعمق ••

لقد كتب الرافعى مؤلفاته وزاد بيانها الادبى والفكرى بأسلوب
بليغ ، حى نابض بالحياة ، لم يستصعب عليه أعمق المعانى ، ولم يشمس
على قلمه أدق حركات الفكر وأعمق خلجات النفس الانسانية •

ولسنا فى حاجة الى تفصيل الحديث عن آثاره الادبية فقد تولى
ذلك من قبل الاستاذ محمد سعيد العريان (١) • وحسبنا ما قدمناه من
اشارات لا بد منها تعين على معرفة أسباب اهتمامه باللغة وأسرارها •

وفاته :

توفى فى ١٠ مايو سنة ١٩٣٧ ، وكان فى السابعة والخمسين من
عمره ، وقد دفن جوار أبوبه فى مقبرة الرافعى بطنطا وترك وراءه
عشرة من أولاده (٢) ولم ينل ما يستحقه من الوفاء وواجب الذكرى •

(١) نفسه ص ٣٤٩ — ٣٥٣ ومن أهمها : ديوان الرافعى فى ثلاثة
اجزاء وديوان النظرات ، ومملكة الانشاء ، وتاريخ آداب العرب ، واعجاز
القرآن ، وحديث القمر ، والمساكين ، ورسائل الاحزان ، والسحاب
الاحمر ، والمعركة تحت راية القرآن ، وعلى السفود ، وأوراق الورد ،
ووحى القلم ، وأسرار الاعجاز ، وديوان أغانى الشعب .

(٢) د : كمال نشأت مصطفى صادق الرافعى ص ٢٤